ملحق الخليج - الشارقة ٩٥ - ملف ٥١٣ (أعداد) ٧٥٤
١١/١/٢٠٠٠

د. علي خليفة الكواري

القابض على الجمر

لا تبدأ الرغبة في المعرفة من الفراغ، وإنما تنطلق تلبية لطموحات الإنسان في تغيير الواقع إلى ما يتصور أنه الأفضل والأجمل، وقد يكون التفكير في التغيير أمراً هيناً حين يكون على المستوى الفردي، حين يود الإنسان- الفرد أن يحقق أحلامه الخاصة، وهذا النوع من التفكير يتساوى فيه الناس جميعاً، سواء أكانوا من العاديين أم المتميزين، لكن التفكير في التغيير ليس بهذه السهولة إذا كان الإنسان يحاول التجرد مما يعنيه هو شخصياً، لكي ينطلق إلى التفكير في تغيير طبيعة الحياة في الوسط الذي يعيش فيه، والذي يتدرج من المجتمع إلى الوطن إلى الأمة التي ينتمي إليها، وإلى الإنسانية بصورة عامة بحكم كونه إنساناً خالصاً.

أيا كان مستوى التفكير، بسيطاً أو متعمقاً، وأيا كانت طبيعته، فإنه لا يبدأ إلا بسؤال.. لماذا؟.. كيف؟.. متى..؟.. وبطبيعة الحال فإن السؤال يتطلب إجابة، والإجابة لا تكون صحيحة إلا إذا انبثقت من النظر المتأمل في جذور الواقع وأعماقه، ومن هنا فإن الذين يقال إنهم يفكرون من أبراجهم العاجية، أو الذين يقال إنهم قد ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب ليس بإمكانهم أن يغوصوا في أعماق ما يفكرون فيه، بل إن التفكير في التغيير- في حد ذاته- قد يكون من الأمور التي لا تخطر لهم ببال، ولا يتحقق لهؤلاء أن يقدموا إجابات صحيحة على ما يثار من أسئلة إلا إذا تخلوا عن أبراجهم أو تناسوا ملاعقهم الذهبية.

علىّ الصعيد الإنساني، لم يولد الدكتور علي خليفة الكواري وفي فمه ملعقة من الذهب، وفيما بعد فإنه لم يعرف أبداً كيف يمكن للمفكر أن يفكر وهو متحصن في برج عاجي، فالتفكير عنده لا ينطلق إلا من الواقع، بعد أن يتأمل المفكر تفاصيله وجزئياته، ولأن الانطلاق من الواقع يصطدم عادة بما هو مألوف أو سائد كما يقلق راحة القانعين أو النائمين أو الذين يرون أن هذا الواقع على أفضل وجه، وأنه ليس بالإمكان أفضل مما هو كائن بالفعل... لكل هذا، فإن المفكر لا يكون واحداً ممن يتنزهون في الحدائق، وإنما يكون واحداً ممن يقبضون على الجمر.

الزمان.. يوم من أيام سنة ١٩٤١، أما المكان فيتمثل في إحدى قرى شمال قطر.. هكذا ولد علي خليفة الكواري، وعايش الحياة الخشنة على المستويين العام والخاص، فعلى مستوى الخليج، لا قطر وحدها، كان زمان الغوص قد فقد مردوده الاقتصادي الذي كان له، وعلى المستوى الخاص لم يكن التعليم النظامي قد بدأ أو تأسس، ولكن الطموح الإنساني حين يكون جاداً ومثابراً يستطيع بالطبع أن يتحدى المآزق والصعاب، وهذا ما كان، حيث انطلق علي خليفة الكواري من تلاوة القرآن الكريم على يد والده أو أقربائه إلى أكثر من قطر عربي سعياً وراء التعليم، ثم إلى إنجلترا التي حصل من إحدى جامعاتها على درجة الدكتوراه وكانت المسيرة الصعبة قد بدأت من القاهرة، حيث التحق علي خليفة الكواري بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، لكنه اضطر إلى ترك الدراسة سنة ١٩٦٤ وأتيح له بعدها أن يحصل على البكالوريوس في إدارة الأعمال من جامعة دمشق سنة ١٩٦٦، ومرت سنوات إلى أن تحقق الطموح العلمي بالحصول على دكتوراه الفلسفة في العلوم الاجتماعية من جامعة درهام في إنجلترا سنة ١٩٧٤.

بعد رحلته العلمية، عاد الدكتور علي خليفة الكواري إلى الأرض التي شهدت ميلاده وكفاحه الشاق، عاد ليعمل في قطاع النفط، ثم عمل مديراً لمشروع دراسات التنمية لأقطار الخليج العربي بجامعة قطر، إلى أن أسس المكتب العربي للدراسات والاستشارات في قطر، وهو الآن يعمل في إحدى هيئات الأمم المتحدة ببيروت العربية.

كان عليه أن يقرأ عن الواقع الذي عايشه ويعايشه لكي يستوعب، وقد قرأ بنهم، وكان عليه أن يطرح على نفسه عشرات الأسئلة لكي يتوصل إلى ما يراه صائباً من الأجوبة، وهذا ما حقق له أن يكون مفكراً مستنيراً وباحثاً قديراً في الميادين التي ارتادها وتعمق في دراستها، وتقديم خلاصة ما توصل إليه من فكر في مجموعة من الدراسات المهمة والمفيدة والتي لا يستطيع أن يستغني عنها الباحثون الجدد ممن تعنيهم قضايا منطقة الخليج العربية بصورة خاصة وقضايا أمتنا العربية بصورة عامة.

أصدر المفكر المستنير الدكتور علي خليفة الكواري أولى دراساته (بلغتنا العربية) سنة ١٩٨١ بعنوان «دور المشروعات العامة في التنمية الاقتصادية»، أما عنوانها الفرعي فهو «مدخل إلى دراسة كفاءة أداء المشروعات العامة في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط». وإذا كانت هذه الدراسة قد صدرت ضمن سلسلة «عالم المعرفة» الشهيرة في الكويت، فإنها صدرت عن جامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية سنة ١٩٨٢ بعنوان «إدارة المشروعات العامة في دول الجزيرة العربية المنتجة للنفط»، أما الدراسة الثانية التي صدرت سنة ١٩٨٣ عن جامعة الكويت فإنها حملت عنوان «نحو فهم أفضل لأسباب الخلل السكاني في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط». وفي سنة ١٩٨٥ أصدر الدكتور علي خليفة الكواري دراستين، أولاهما صدرت عن مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت بعنوان «نحو استراتيجية بديلة للتنمية الشاملة» أما ثانيتهما فقد صدرت عن دار كاظمة للنشر والترجمة بالكويت بعنوان «هموم النفط وقضايا التنمية في الخليج العربي» وفي سنة ١٩٩٠ أصدر الدكتور علي خليفة الكواري بالمشاركة مع الدكتور جاسم خالد السعدون دراسة بعنوان «رسالة إلى عاقل- التنمية في أقطار مجلس التعاون بين غير الممكن والممكن غير المرغوب» وبعدها عكف المفكر المستنير على إنجاز دراسة من أعمق الدراسات في مجالها، وهي «تنمية للضياع/ أم ضياع لفرص التنمية؟» وجاء عنوانها الفرعي الموضح «محصلة التغيرات المصاحبة للنفط في بلدان مجلس التعاون» وقد صدرت هذه الدراسة العميقة والجادة في طبعتين عن مركز دراسات الوحدة العربية، أولاهما في يناير ١٩٩٦ والثانية في مايو من نفس السنة. ومن الهم العربي الخليجي إلى الهم العربي العام أصدر الدكتور علي خليفة الكواري بمشاركة مجموعة من المفكرين والباحثين دراسة جديدة بعنوان «الديمقراطية والأحزاب في البلدان العربية- المواقف والمخاوف المتبادلة» وقد صدرت هذه الدراسة منذ عدة أشهر قلائل، أي في السنة الأخيرة من سنوات القرن العشرين، وشارك فيها إلى جانب علي خليفة الكواري كل من: برهان غليون- جورج طرابيشي- خالد المبارك- رغيد الصلح- عبدالحسين شعبان- غسان العطية- مصطفى الحسيني- وليد خدوري- يوسف شويري.

وعلى الرغم من أني لم أستكمل بعد قراءة هذه الدراسة الجديدة إلا أنني سمحت لنفسي بأن أستعير جانباً من عنوانها الفرعي، مؤكداً من خلاله أن الرؤية الشاملة والمتكاملة التي يتحلى بها الدكتور علي خليفة الكواري هو وأمثاله من المفكرين الجادين هي التي تتيح لنا أن نتفهم المواقف والمخاوف لدى الآخرين ولدى أنفسنا أحياناً، ومن خلال هذا التفهم يمكن أن تتبلور أرضية مشتركة بإمكان الجميع- إذا كانوا مخلصين وغير متشنجين- أن يتلاقوا عندها، لأن الأخطار المحدقة بالأمة العربية لا تستثني من ويلاتها أحداً.

في خاتمة هذه السطور، أقول بكل فرح واعتزاز إنه قد أتيح لي أن أقرأ بتمعن دراسة الدكتور علي خليفة الكواري «تنمية للضياع/ أم ضياع لفرص التنمية»، وإذا كانت هذه الدراسة في مجملها عميقة ومهمة، فإني أدعو القارىء العربي المهتم بقضايا أمتنا العربية أن يقرأ ما توصل إليه الدكتور علي خليفة الكواري من استنتاجات وملاحظات فيما يتعلق بواقع المجتمع العربي في الخليج، وبالذات في الوقت الراهن، فالحق أن هذه الاستنتاجات والملاحظات التي يجدها القارىء ضمن القسم الرابع من هذه الدراسة العميقة والمهمة تتطلب أكبر قدر من الاهتمام من جانب الجميع، وعلى اختلاف مواقعهم ومراكزهم، إذا كانوا يدركون حقاً أن المصير واحد وأن الأخطار المحدقة بنا لا تستثني أحداً منا.

حسن توفيق